

البلاغة بوصفها نظرية الخطاب

محمد بوعزة*

- المغرب -

تحتل البلاغة في الدراسات الأدبية والنقدية الحديثة مكانة مرموقة. وقد أصبح ينظر إليها اليوم ليس كعلم لتحليل النصوص في بعدها الجمالي، بل إن البلاغة (لتنزع إلى أن تصبح علماً واسعاً للمجتمع)^(١).

ولم يكن لهذه النهضة أن تزدهر، إلا بإعادة النظر في البلاغة القديمة، بهدف تجديد الدرس البلاغي وجعله يواكب التصورات الحاصلة في مجال المعرفة الإنسانية المعاصرة. وقد استندت هذه "الإعادة نظر" في البلاغة القديمة - في رأي هنريش بليث - إلى مبررين: الأول تاريخي، وهو المساهمة في كشف النسق البلاغي القديم، وذلك بنزع الطابع المعيارى عنه، بفضل ما تمدنا به المناهج الحديثة من إبداعات علمية صارمة. والمبرر الثاني ذو طبيعة منهجية تتعلق بطبيعة النسق البلاغي، الذي أظهر عبر قرون قابليته للاستمرار بل ومرونة تسمح

لقد اقتضت البلاغة جميع المعارف الإنسانية من نقد أدبي، وفلسفة ولسانيات وسميانيات وأنثروبولوجيا. ولعل هذا التطور الذي عرفته البلاغة في العقود الأخيرة، قد تم بفضل تطور مناهج البحث في العلوم الإنسانية. هكذا وجدنا "هنريش بليث" يقول: "إن سبب هذه النهضة البلاغية يرجع في مجال التنظير إلى الأهمية المتزايدة للسانيات التداولية ونظريات التواصل والسميانيات والنقد الأيديولوجي وكذا الشعرية اللسانية في مجال وصف الخصائص الإقناعية للنصوص"^(٢).



بالتماذي في تطبيقه على نصوص جديدة وممكنة.

وفي هذا السياق التطوري للبلاغة، كانت الاستعارة الموضوع الأكثر جاذبية للبلاغيين المحدثين. لذلك وجدنا الدكتور محمد مفتاح، يقول :

«قد لا يبالغ المرء إذا قال أن أهم ما يشغل الدارسين للغات الانسانية حالياً هو الاستعارة. فهي موضع إهتمام من قبل اللسانيين وفلاسفة اللغة والمناقطة وعلماء النفس والأنثروبولوجيين»^(٢).

وهذا الأمر ليس بغريب، إذا عرفنا أن الكلام مرتبط بالوجود، وأن البلاغة ترتبط إلى يومنا هذا بمختلف فروع المعرفة.

وقد بين كل من لايكوف وجونسون^(٤) أن الاستعارة لا ترتبط فقط بالأساليب الشعرية وبالاستعمالات الراقية للغة. إنها على خلاف ذلك، تنبع من رحم وزخم الاستعمالات العادية واليومية للغة. بل إنها تحضر بقوة في طرائق تفكيرنا وأشكال سلوكنا. ويرجع هذا الحضور للاستعارة في حياتنا اليومية إلى طبيعة النظام الإدراكي الذي يسمح لنا بالتفكير والتصرف، والذي هو في عمقه من طبيعة استعارية.

ولعل أول مشكل يعترض الباحث في البلاغة هو تعدد النظريات حول

الاستعارة من نظريات نفسانية وإبدالية وعلاقية وتفاعلية. وفي محاولة للتغلب على هذه الصعوبة سنعمد إلى دراسة الاستعارة من خلال النظرية التفاعلية لدى أبرز أعلامها، أقصد ريتشاردز.

في البداية، لا بد من الإشارة، إلى أن كل النظريات المعاصرة في دراسة الاستعارة رغم تنوعها الشديد وتباينها البعيد، فإنها تتفق على مستوى رفض ما يسمى بمسلمات النظرية الإبدالية، التي ترجع أصولها إلى الشعرية الأرسطية.

هذه المسلمات التي تشكل حجر الزاوية في النظرية الإبدالية هي :

١ - مجال الكلمة : ومعناه أن الاستعارة لا تخص سوى الكلمة المعزولة عن السياق، ذلك أن الدراسة التقليدية للاستعارة تنطلق من الكلمة وليس من الخطاب، وترصد ما يقع من تغيرات في بنية الكلمة بمعزل عن العناصر المجاورة لها.

٢ - مزدوج المعنى : ومعناه أن الكلمة تمتلك معنيين : المعنى الأصلي وهو المعنى الحقيقي، ثم المعنى المجازي، وهو المعنى الثاني المتفرع عن الأصل. وينتج عن هذه المسلمة تبعية

المعنى المجازي للمعنى الحقيقي.

٣ - مبدأ الاستبدال : ومعناه أن بناء الاستعارة يقوم على إجراء النقل والابدال.

٤ - مبدأ التشابه : ومعناه أن إجراء النقل يتأسس على مفهوم التشابه بحيث تكون العلاقة بين طرفي الاستعارة (المستعار منه والمستعار) هي علاقة التشابه.

٥ - التكافؤ المعرفي : ومعناه أن العلاقة بين الجملة الحقيقية والجملة المجازية هي علاقة تكافؤ معرفي، بحيث أن المعنى المقصود في التعبير الاستعاري هو نفسه الموجود والحاصل في التعبير الحقيقي. لكن التعبير الاستعاري يمنحه قوة أخرى وصفية أو انفعالية أو زخرفية^(٥).

لقد حاولت النظرية التفاعلية تجاوز النظرية الابدالية، التي ترى أن التعبير الاستعاري يستعمل بدلاً من التعبير الحرفي معادلاً، لذلك كانت الاستعارة في التصور الابدالي مجرد زينة للكلام وزخرف يلصق بالمعنى. ولكي تحقق النظرية التفاعلية هذا التجاوز كان عليها أن تكشف عن كل الثغرات في النظرية الابدالية. وأن تقترح منهجية جديدة لدراسة الاستعارة من منطلق معرفي أكثر دقة وعمقا.

فما هي تصورات "ريتشاردز" للبلاغة والاستعارة ؟

ينطلق "ريتشاردز" في مشروعه العلمي لدراسة الاستعارة من فكرة مفادها أن أي مبحث جديد في الاستعارة لا يمكن أن يتأسس، إلا بعد إعادة النظر في البلاغة القديمة ومساءلة مفاهيمها واختبار تصوراتها. إنه يحاول - على حد تعبيره - أن يبعث الحياة في موضوع قديم.

ولكي يؤسس هذا المشروع جدته وفردته، فإنه يطمح إلى قطع الصلة بكل المسلمات التقليدية والنزوع المعياري في البلاغة القديمة. لهذا السبب فإن هذه القطيعة تتطلب الكثير من الدقة العلمية والحذر المنهجي.

وتكمن أهمية مشروع "ريتشاردز" في أنه لم يشق عصا الطاعة على البلاغة القديمة إلا بعد أن أستوعبها وأعاد قراءتها قراءة نقدية وحفورية. فلا غربة، إذا رأيته يرجع إلى البلاغة القديمة، ليكشف عن نقاط الضعف في تصوراتها مثل الفعل بين الشكل والمحتوى، والمقابلة بين المادة والصورة وغيرها من الثغرات المنهجية التي أعادت الدرس البلاغي القديم عن تشكيل رؤية أكثر إدراكاً لمشكلات الخطاب. وأول هذه الثغرات في البلاغة القديمة، إهمالها لمسألة اشتغال



ان الكلمة لا تكتسب معناها من ذاتها، بل من موقعها داخل الخطاب وعلاقتها بالعناصر المجاورة لها.

ودفعاً لهذه الخرافة، يفترض "ريتشاردز" مفهوم "السياق" لفهم دلالات الألفاظ. وهذا يعني أنه يرفض دراسة الكلمات في ذاتها، وينطلق من البلاغة باعتبارها نظرية للخطاب، تسعى إلى الكشف عن بنية المعاني التي يتألف منها الخطاب. وبهذا المفهوم يتجاوز "ريتشاردز" المسئلة المهيمنة في النظرية البلاغية الابدالية، ونعني بها "مجال الكلمة" التي تربط البلاغة باللفظ المطلق.

وتظهر فاعلية هذا التجاوز، في كونه يجعلنا نرفض التسليم بثبات دلالات الألفاظ، أو الاعتقاد بأن الخطاب مجرد تنظيم بسيط للمعاني وأن البلاغة مجرد لعب شكلي. لذلك لا يتوانى "ريتشاردز" في رفض التعريف المدرسي للبلاغة، والاقرار بأن (البلاغة يجب ان تكون دراسة لحالات سوء الفهم وطرق معالجتها)^(٧). فلا تعود البلاغة مجرد لعب شكلي، بل إنها تسعى إلى البحث في آليات الادراك الانساني للوجود، بواسطة اقتراحها لبعض الاجراءات التي لا بد منها لفهم طرائق الادراك والتواصل الانسانيين.

اللغة ككل وكنسق تتحرك أجزاؤه وعناصره في طار علائقي وتكاملي. والسبب في ذلك يرجع إلى التصور التقليدي للغة الذي كان سائداً في البلاغة القديمة. هذا التصور الذي يختزل اللغة إلى مجرد رصف وتنظيم بسيط لدلالات الألفاظ، ويسند لكل لفظة معنى ثابتاً لا يتغير.

ويرجع هذا الاعتقاد بثبات محنة الكلمات، إلى ما يسميه «ريتشاردز» بـ "خرافة المعنى الخاص" ومرد ذلك الاعتقاد الشائع الذي كرسه الكتب السكولائية (المدرسية)، بأن للكلمة معنى ثابتاً، يشغل في استقلال عن شؤون إستعماله وتداوله. بل إن هذا المعنى الثابت يتحكم في معاني بعض الكلمات. (وهذه الخرافة هي إقرار بنوع من الثبات في معاني بعض الكلمات، ولا تكون خرافة إلا حين تنسى أن ثبات معنى الكلمة إنما ينشأ عن استقرار السياقات التي تضيف عليها معناها)^(٨).

وبسبب خرافة المعنى الواحد، كانت البلاغة القديمة تركز جل اهتمامها وجهودها على دراسة الكلمة بمعزل عن السياق الذي يحدد دلالتها. وتقيم فرقاً وهمياً بين ما تسميه المعنى الحقيقي والمعنى المجازي. والحال أن الدراسة الجديدة للبلاغة أثبتت

إن المفهوم الجديد في النظرية التفاعلية الذي سيفير كل النسق التقليدي، هو مفهوم السياق. وهو (يشير بشكل عام إلى مجموعة الأحداث المترابطة، تدخل في ذلك الشروط المطلوبة وما نختاره مما يمكن أن نسميه "علة" أو معلولاً. ففي هذه السياقات غالباً ما تأخذ لفظة واحدة مهمات فقرات أخرى يمكن الاستغناء عن تكرارها)^(٨).

إن مفهوم السياق يشير ببساطة إلى مجمل الشروط التي تصاحب استعمال الكلمات، ولما كانت هذه الشروط متغيرة، كان دلالات الكلمات متعولة. وهذا يعني أن الكلمة ذات بنية مرنة قادرة على التحول واكتساب دلالات جديدة. إن الكلمات ليست مجرد أقمشة تُحفظ في خزانة اسمها اللغة. إنها طاقات حية ومتحركة، تعمل بحيوية ونشاط، وتتبادل التأثير فيما بينها. ويأتي مفهوم السياق ليكشف عن عملية التفاعل التي تحدث بين الكلمات، وعن طريقة اشتغال الكلمة داخل اللغة.

وتحمل الكلمات فيما بينها، من خلال إحالتها على سياق غائب، يساعدنا على إدراك معانيها، وهذه الظاهرة يسميها "ريتشاردز" بـ "الفاعلية البديلة" ومعنى هذا الاصطلاح، أن الكلمات، تمارس

تأثيرها وسلطانها على ما هو غائب من خلال السياقات المختلفة. وينتج عن هذه الاحالة، أنه لا يمكن الوصول إلى دلالات الكلمات، إلا إذا تمكنا من تحديد أنماط السياقات وأهداف الخطاب.

وتتنوع علاقات التفاعل والتأثير بين الكلمات بتنوع أشكال الخطابات وتعدد السياقات.

أما بالنسبة لدراسة الاستعارة، يلاحظ "ريتشاردز" أن الدرس البلاغي القديم ظل قاصراً في تناول هذه الظاهرة. بسبب وجود ثلاثة افتراضات فاسدة: الأول يذهب إلى أن القدرة على رؤية المشابهات موهبة أو هبة يمتلكها بعض الناس دون الآخرين. والافتراض الثاني يتجلى في كون الموهبة على صياغة الاستعارة لا يمكن نقلها للآخرين. أما الافتراض الثالث، فيظهر في كون الاستعارة كان ينظر إليها عبر تاريخ البلاغة على أنها لعب شكلي وفسيقي باللفاظ وكأنها ضرب من "الكلمات المتقاطعة". وكما يقول "ريتشاردز": "باختصار اعتبرت الاستعارة جمالاً أو زخرفاً أو قوة إضافية للغة وليست الشكل المكون والاساس لها"^(٩).

وكانت نتيجة هذه الافتراضات، أن انحصر نشاط البلاغة القديمة في القضايا السطحية، وفي شرح



وتعداد الأوجه والصور البلاغية. على خلاف التصور التقليدي، ينطلق "ريتشاردز" من تصور عميق للاستعارة، كمبدأ ضروري لاشتغال اللغة. ويحدد "ريتشاردز" بنية الاستعارة على الشكل التالي : "وفي أبسط التشكيلات، فإننا عندما نستعمل استعارة ستكون عندنا فكرتان لشئين مختلفين، تعملان معاً ومسدتان بكلمة واحدة أو عبارة واحدة، يكون معناها حاصل تفاعل هاتين الفكرتين"^(١٠).

وتكمن قوة الاستعارة فيما تمارسه كل فكرة في الأخرى من تأثير، أو ما تفعله الفكرتان مجتمعتين. وإذا ما حاولنا حصر أنواع التفاعلات بين الفكرتين، سنجد تنوعاً هائلاً في أنماط التفاعل بين الكلمات والأفكار المتجاورة.

على أن هذا التصور الجديد لطريقة اشتغال الاستعارة، يظل ناقصاً ما لم نحدد مصطلحين دقيقة تضبط بنية الاستعارة وصيرورتها لذلك يقترح "ريتشاردز" مصطلحين نستطيع بهما التمييز بين الفكرتين. لأننا لا نعتد في البلاغة القديمة على مصطلحات مميزة ومحددة بدقة. إذ لا تقدم لنا البلاغة القديمة إلا بعض المفاهيم الوصفية غير الدقيقة مثل (الفكرة الأصلية) و(الفكرة المستعارة)...

وتفادياً لمثل هذه المفاهيم الفضفاضة والمركبة. يسمي "ريتشاردز" الفكرة الأولى بـ "المحمول" Tenor والفكرة الثانية بـ "الحامل" Vehicle. وتنبع أهمية هذا الاصطلاح، في كونه يزيل كل غموض منهجي أو ارتباك مفهومي، ويلغي كل إشارة إلى مزدوج المعنى الحقيقي والمجازي. وأخيراً، فإنه يساهم في دحض ذلك الاعتقاد الشائع في البلاغة القديمة، الذي يجعل المجازات والاستعارات مجرد زخارف.

ويرفض "ريتشاردز" هذا الاعتقاد المثالي لسببين :

أولاً : أن الحامل ليس مجرد زخرف للمحمول، والمعنى ينتج من تعاون كل من المحمول والحامل، ولا يمكن إرجاعه إلى أي أحد منهما في حالة انفصالهما.

ثانياً : المعنى في الاستعارة ينتج عن تفاعل المحمول والحامل مجتمعين ولا يمكن الحصول عليه دون التفاعل المشترك بينهما. وبالتالي لا وجود لمعنى حقيقي أصلي ومعنى مجازي فرعي.

* * *

لم ينشغل مشروع "ريتشاردز" بتعداد الصور البلاغية، كما هو شأن البلاغة القديمة. وإنما تعدى

(٣) د. محمد مفتاح : «تحليل الخطاب الشعري»، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، ص ٨١.

(٤) LAKOFFb G- JOHNSONb M :
"LES METAPHORES DANS LA
VIE QUOTIDIENNE"- MINUIT -
PARIS 1985, P:13

(٥) لم يذكر د. محمد مفتاح هذه المسئلة الخامسة في عرض لمسلمات النظرية الابدالية ضمن كتابه السالف الذكر.

(٦) «فلسفة البلاغة، ترجمة ناصر حلوي وسعيد الغانمي مجلة «العرب والفكر العالمي، العدد ١٣ و ١٤ ربيع ١٩٩١، ص ٩.

(٧) ريتشاردز : نفس المرجع، ص ٦.

(٨) ريتشاردز : نفس المرجع، ص ١٨.

(٩) ريتشاردز : نفس المرجع، ص ٣.

(١٠) ريتشاردز : نفس المرجع، ص ٣٩.

* شاعر وناقد مغربي

ذلك إلى الغوص في الموضوع عمودياً وليس سطحياً. وكشف عن تحولات الدلالة في الكلمات، وعن الدينامية الداخلية، في بنية الاستعارة. وهذه الدينامية، ترفض أن تتجمد ضمن قوالب جاهزة. فالاستعارة طاقات دلالية وجمالية غير منتهية، ودراستها محاولة للكشف عن هذه الدلالات المعقدة.

الهوامش :

(١) هنريش بليت : «البلاغة والأسلوبية، ترجمة د. محمد العمري، منشورات مجلة دراسات سمائية أدبية لسانية، الطبعة الأولى ١٩٨٩، البيضاء، ص ١٦.

(٢) هنريش بليت : نفس المرجع، ص ١٦.